﴿ إِلَىٰ يَوْمِ(١) الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) ﴾

أى : أن إبليس سيذوق الموت أيضاً ؛ لأن كل المخلوقات ستذوق الموت من قبل أن تقوم القيامة ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. (٦٨) ﴾ [الزمر]

وكذلك قوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) ﴾ [الرحمن]

وهكذا لم يُفلتْ إبليس من الموت .

ولقائل أنْ يسألَ : وكيف كلَّمه الله ؟

ونقول : لم يُكلِّمه الله تشريفاً أو تكريماً ؛ بل غلَّظ له العقاب ، كما أن للحق سبحانه ملائكة يمكنهم أن يُبلِّغوا ما شاء لمَنْ شاء .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) ﴾

---

(١) قال ابن عباس : أراد بهذا اليوم ـ النفخة الأولى ، أى : حين تموت الخلائق . وقيل : الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ، ويجهله إبليس ، فيموت إبليس ثم يبعث . [تفسير القرطبى ٥/ ٣٧٥٠] .

وقول الشيطان : ﴿ رَبِّ .. (٣٩) ﴾ [الحجر]

هو إقرار بالربوبية ؛ ولكن هذا الإقرار متبوع بعد الاعتراف بأنه قد سبّب لنفسه الطّرد واللعنة ؛ فقد قال :

﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي .. (٣٩) ﴾ [الحجر]

والحق سبحانه لم يُغوه ؛ بل أعطاه الاختيار الذى كان له به أن يؤمن ويطيع ، أو يعصى ويُعاقب ، فسبحانه قد مكّن إبليس من الاختيار بين الفعل وعدم الفعل ؛ فخالف إبليسُ أمرَ الله وعصاه .

ويتابع إبليس : ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ .. (٣٩) ﴾ [الحجر]

وفى هذا إيضاح أن كُلّ وسوسة للشيطان تقتصر فقط على الحياة المترفة . وفى الأشياء التى تُدمّر العافية ، كمَنْ يشرب الخمر ، أو يتناول المخدرات ، أو يتجه إلى كل ما يُغضب الله بالانحراف .

ولذلك نجد أن مَنْ يحيا بدخْلٍ يكفيه الضرورات ؛ فهو يَأمن على نفسه من الانحراف . ونقول أيضاً لمَنْ يحاولون أن يضبطوا موازينهم المالية : إن الاستقامة لا تُكلّف ؛ ولن تتجه بك إلى الانحراف .

وتزيين الشيطان لن يكون فى الأمور الحلال ؛ لأن كل الضرورات لم يُحرِّمها الحق سبحانه ؛ بل يكون التزيين دائماً فى غير الضرورات ، ولذلك فالاستقامة عملية اقتصادية ، تُوفّر على الإنسان مشقة التكلفة العالية بمعنى من ألوان [illegible]

ولذلك نجد المسرفين على أنفسهم يحسدون مَنْ هم على

الاستقامة ، ويحـاولون أخْذهم إلى طريق الانحراف ؛ لأن كل منحرف إنما يلوم نفســه متسائلاً : لماذا أخيب وحدى ؛ ولا يخـيب معى مثل هذا المستقيم ؟ وتمتلىء نفسه بالاحتقار لنفسه .

وكذلك كان إبليس فى حُمْق ردِّه على الله ، ولكنه ينتبه إلى مكانته ومكانة ربه ؛ أيدخل فى مـعركة مع الله ، أم مع أبنـاء آدم الذى خلقه سبحانه كخليفة ليعمر الأرض ؟

لقد حدّد إبليس موقعه من الصراع ، فقال :

﴿ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ .. (٣٦) ﴾ [الحجر]

وهذا يعنى أن مجالَ معركته مع الخَلْق لا مع الخالق ؛ لذلك قال :

﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ(١) أَجْمَعِينَ (٣٩) ﴾ [الحجر]

وكلمة (أجمـعين) تفيد الإحاطةَ لكل الأفـراد ، وهذا فوق قدرته بعـد أنْ عرف مُـقَامـه من نفســه ومن ربه ، فقـال ما جـاء به الحق سبحانه فى الآية التالية :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾

فهؤلاء العـباد الذين خلَّصتهم لنفســك يا ربّ ؛ فلن أقدر عليهم ؛ لأنك أخذتهم من طريق الغواية ؛ لأنهم أحـسنوا الإيمان ، وقد وصلوا

(١) عن أبى سـعيـد الخدرى ـ رضى الله عـنه ـ قال قـال رسول الله ﷺ : « إن إبليس قـال : يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم . فقال الرب : وعزتى وجـلالى لا أزال أغفر لهم ما اسـتغفـرونى » . أخرجه أحمـد فى مسنده (٣/ ٢٩ ، ٤١) وفى إسناده ابن لهيعة . وانظر مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٧) .

إلى مرتبة من الإخلاص التعبُّدى درجةً يصعب بها على الشيطان غوايتهم .

ويقول أهل المعرفة والإشراق : « أنت تصل بطاعة الله إلى كرامة الله » .

ولو شاء الله أن يكون جميع خَلْقه مهديين ما استطاع أحد أنْ يُضلّهم ، ولكن عِزّة الله[1] عن خَلْقه هى التى أفسحتِ المجالَ للإغواء ، ولذلك نجد إبليس يُقرّ بعجزه عن غواية مَنْ أخلصوا لله العبادة .

ونجد رد الحق سبحانه على إبليس واضحاً لا لَبْس فيه ، ولا قبول لمَا قد يظنُّه إبليس مجاملةً منه لله ، فيقول سبحانه فى الآية التالية :

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) ﴾

وهكذا أوضح الحق سبحانه أن صراطه المستقيم هو الذى يقود العباد إلى الطاعة ؛ فليس فى الأمر تفضُّل من إبليس الذى سبق له أنْ حدَّد المواقع والاتجاهات التى سيأتى منها لغواية البشر ، حيث قال الحق سبحانه ما جاء على لسان إبليس :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ[2] وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾ [الأعراف]

---

(١) عزة الله عن خلقه : أى استغناؤه سبحانه عنهم .

(٢) قال قتادة : « أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار . ومن خلفهم من أمر الدنيا ، فزيَّنها لهم ودعاهم إليها . وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها . وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصى ودعاهم إليها وأمرهم بها . أتاك يا بن آدم من كل وجه ، غير أنه لم يأتك من فوقك ، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله » . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٠٤) .

فى ذلك القـول حدَّد إبليس جهـات الغواية التى يأتى مـنها وترك « الفَوْق » و « التَّحْت » ، لذلك نقول: إن العبد إذا استحضر دائماً عُلُوَّ عزّة الربوبية ، وذُلّ العبودية ؛ فالشيطان لا يدخل له أبداً .

ويواصل الحق سبحانه قوله المُبلَّغ عنه لنا :

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وهكذا أصدر الحق سبحـانه حُكْمه بألاَّ يكون لإبليس سلطان على مَنْ أخلص لله عـبادة ، وأمر إبليس ألاَّ يتـعرض لهم ؛ فـسبـحانه هو الذى يَصُـونهم منه ؛ إلا مَنْ ضَلَّ عن هـدى الله سبـحـانه ، وهم مَنْ يستطيع إبليس غوايتهم .

وهكذا نجـد أن « الغـاوين » هى ضـد « عـبـادى » ، وهم الذين اصطفـاهم الله من الـوقـوع تحت سلطان الشـيطـان ؛ لأنهم أخلصـوا وخلَّصـوا نفوسهم لله ، وسنـجد إبليس وهو ينطق يوم القـيامـة أمام الغاوين :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ[1] إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[2] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

(١) السلطان : الملك والقوة والقهر والحجة ، والبرهان . [القاموس القويم ١/٣٢٣] .

(٢) المصرخ : المغيث الذى يُغيث غيره . والاستصراخ : الاستغاثة والإغاثة . والمستصرخ : المستغيث . [لسان العرب ـ مادة : صرخ] .

ومن نعَم الله علينا أن أخبرنا الحق سبحانه بكلّ ذلك فى الدنيا ، ولسوف يُقِر الشيطان بهذا كله فى اليوم الآخر ؛ ذلك أنه لم يملك سلطاناً يقهرنا به فى الدنيا ، بل مجرد إشارة ونَزْغ ؛ ولا يملك سلطانَ إقناع ليجعلنا نفعل ما ينزغ به إلينا .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما يُؤكّد أن جزاء الغاوين قَاسٍ أليم :

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

ولأن المصير لهؤلاء هو جهنم ؛ فعلى العبد الذكيّ أن يستحضرَ هذا الجزاء وقتَ الاختيار للفعل ؛ كى لا يرتكب حماقةَ الفعل الذى يُزيّنه له الشيطان ، أو تُلح عليه به نفسه . ولو أن المُسرف على نفسه استحضر العقوبة لحظةَ ارتكاب المعصية لَماَ أقدم عليها ، ولكن المُسْرف على نفسه لا يقرِن المعصية بالعقوبة ؛ لأنه يغفل النتائج عن المقدمات .

ولذلك أقول دائماً : هَبْ أن إنساناً قد استولتْ عليه شراسة الغريزة الجنسية ، وعرفَ عنه الناس ذلك ، وأعدّوا له مَا يشاء من رغبات ، وأحضروا له أجملَ النساء ؛ وسهّلوا له المكان المناسب للمعصية بما فيه من طعام وشراب .

وقالوا : هذا كله لك ، شَرْط أن تعرف أيضاً ماذا ينتظرك . وأضاءوا له من بعد ذلك قَبْواً فى المنزل ؛ به فرن مشتعل . ويقولون له : بعد أنْ تَفْرُغ من لَذّتك ستدخل فى هذا الفرن المشتعل . ماذا سيصنع هذا الإنسان ؟

لا بُدَّ أنه سيرفض الإقدام على المعصية التى تقودهم إلى الجحيم .

وهكذا نعلم أن مَنْ يرتكب المعاصى إنما يستبطِىء العقوبة ، والذكىّ حقاً هو مَنْ يُصدِّق حديث النبى ﷺ الذى يقول فيه « الموت القيامة ، فَمَنْ ماتَ فقد قامتْ قيامتُه »[1] . ولا أحدَ يعلم متى يموت .

ويُبيِّن الحق سبحانه من بعد ذلك مراتبَ الجحيم ، فيقول :

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ[2] لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

وفى جهنمَ يكون مَوْعِد هؤلاء الغَاوين ، ومعهم إبليس الذى أبَى واستكبر ، وصَمَّم على غواية البشر ، وألوان العذاب ستختلف ، ولكل جماعة لهم جريمة يُقْرنون[3] بها معاً . فمَنْ يشربون الخمر سيكونون معاً ؛ ومَنْ يلعبون الميسر يكونون معاً .

ولكُلّ باب من أبواب جهنم جماعة تدخل منه ربطَتْ بينهم فى الدنيا معصيةٌ ما ؛ وجمعهم فى الدنيا وَلاءٌ ما ، وتكوّنتْ من بينهم

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه وتمامه : « أكثروا ذكر الموت فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسعه عليكم » .

(٢) قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : هل تدرون كيف أبواب جهنم ؟ قيل : هى مثل أبوابنا . قال : لا ، هى هكذا بعضها فوق بعض . زاد الثعلبى ، ووضع إحدى يديه على الأخرى . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٥٣) .

(٣) وهو قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ ﴾ [إبراهيم] أى : مُسَلْسَلين فى القيود والأغلال . كل واحد مع قرينه وشبيهه .

صداقاتٌ فى الدنـيا ، واشتركوا بالمـخالطة ؛ ولذلك فعليـهم الاشتراك فى العقوبة والنكال .

وهكذا يتحقق قول الحق سبحانه :

﴿ الأَخِلاَّءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وفى الجحيم أماكن تَأويهم ؛ فـقِسْم يذهب إلى اللظى ؛ وآخر إلى الحُطَمـة ؛ وثالث إلى سَـقَـر ، ورابـع إلـى السَّعـيـر ، وخـامس إلى الهاوية .

وكل جُزْء له قِـسْم مُعيَّن به ؛ وفى كل قِـسـم دَرَكَات ، لأن الجنة درجات ، والنار دركات تنزل إلى أسفل .

ويأتى الحق سبحانه بالمقابل ؛ لأن ذكْـر المقابل كما نعلم يُعطى الكافـر حَسْرة ؛ ويـعطى المؤمن بشـارةً بأنه لم يكُنْ من العاصـين ، ويقول :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ﴾

والمُـتقى هو الذى يحـولُ بين مـا يُحبّ وما يكره ؛ ويحـاول ألاَّ يصيب مَنْ يحب ما يكره . وتتعدى التقوى إلى متقابلات ، فنجد الحق سبحانه يقول : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

ويقول أيضاً :

(١) الخليل : الصـديق المخلص ، وجـمعـه أخلاء . وخـالَّه مُخـالَّة : صادقـه مصـادقة قـوية . [القاموس القويم ١/٢٠٨]

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤) ﴾ [البقرة]

وقلنا من قَبْل : إن الحقَّ سبحانه له صفاتُ جلال ، وصفات كمال وجمال . يَهَبُ بصفات الكمال والجمال العطايا ، ويهَبُ بصفات الجلال البَلايا ؛ فهو غفّار ، وهو قهار ، وهو عَفُو ، وهو مُنْتقم .

وعلينا أن نجعلَ بيننا وبين صفات الجلال وقاية ؛ وأن نجعل بيننا وبين صفات الجمال قُرْبى ؛ والطريق أن نتبعَ منهجه ؛ فلا ندخل النار التى هى جُنْد من جنود الله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ﴾ [الحجر]

وهم الذين لم يرتكبوا المعاصى بعد أن آمنوا بالله ورسوله واتبعوا منهجه . وإنْ كانت المعصية قد غلبتْ بعضهم ، وتابوا عنها واستغفروا الله ؛ فقد يغفر الله لهم ، وقد يُبدِّل سيئاتهم حسنات .

ومَنْ يدخل الجنة سيجد فيها العيون والمقصود بها الأنهار ؛ والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[1] وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ .. (١٥) ﴾ [محمد]

ولعل هناك عيوناً ومنابعَ لا يعلمها إلا الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه :

(١) أسن الماء : تغيرت رائحته . وهو الذى لا يشربه أحد من نتنه . [لسان العرب ـ مادة : أسن] .

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وهنا يدعوهم الحق سبحانه بالدخول إلى الجنة فى سلام الأمن والاطمئنان . ونحن نعلم أن سلامَ الدنيا والاطمئنان فيها مُختلف عن سلام الجنة ؛ فسلامُ الدنيا يعكره خوف افتقاد النعمة ، أو أن يفوت الإنسانُ تلك النعمة بالموت . ونعلم أن كل نعيم فى الدنيا إلى زوال . أما نعيم الآخرة فهو نعيم مقيم .

ويتابع سبحانه ما ينتظر أهل الجنة :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ(1) إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

وهكذا يُخرج الحق سبحانه من صدورهم أىَّ حقد وعداوة . ويرون أخلاء الدنيا فى المعاصى وهم مُمتلئون بالغلّ ، بينما هم قد طهَّرهم الحق سبحانه من كل ما كان يكرهه فى الآخرة ، ويحيا كل منهم مع أزواج مُطهَّرة . ويجمعهم الحق بلا تنافس ، ولا يشعر أىٌّ منهم بحسد لغيره .

والغلُّ كما نعلم هو الحقد الذى يسكُن النفوس ، ونعلم أن البعض من المسلمين قد تختلف وُجهات نظرهم فى الحياة ، ولكنهم على إيمان بالله ورسوله ﷺ .

والمثل أن علياً كرم الله وجهه وأرضاه دخل موقعة الجمل ، وكان

---

(1) الغل : الغش والعداوة والضغن والحقد والحسد . قال الزجاج فى تفسير الآية : « حقيقته والله أعلم أنه لا يحسد بعض أهل الجنة بعضاً فى علو المرتبة لأن الحسد غل ، وهو أيضاً كدر ، والجنة مُبرأة من ذلك » ذكره ابن منظور فى اللسان « مادة : غلل » .

فى المعسكر المقابل طلحةُ[١] والزبير رضى الله عنهما ؛ وكلاهما مُبشَّر بالجنة ، وكان لكل جانب دليل يُغلّبه .

ولحظةَ أنْ قامت المعركة جاء وَجْه على ـ كرَّم الله وجهه ـ فى وَجْه الزبير ؛ فيقول على رضى الله عنه : تذكر قول رسول الله ﷺ وأنتما تمرّان عليٌّ ، سلَّم النبى وقلْتَ أنت : لا يفارق ابنَ أبى طالب زَهْوُه ، فنظر إليك رسول الله ﷺ وقال لك : « إنك تقاتل علياً وأنتَ ظَالِم له » . فرمى الزبير[٢] بالسلاح ، وانتهى من الحرب .

ودخل طلحة بن عبيد الله على عليٍّ ـ كرم الله وجهه ـ ؛ فقال عليٌّ رضوان الله عليه : يجعل لى الله ولأبيك فى هذه الآية نصيباً . فقال أحد الجالسين : إن الله أعدل من أنْ يجمعَ بينك وبين طلحة فى الجنة . فقال عليٌّ : وفيما نزل إذنْ قوله الحق :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر]

وكلمة « نزعنا » تدل على أن تغلغل العمليات الحقْدية فى النفوس يكون عميقاً ، وأن خَلْعها فى اليوم الآخر يكون خَلْعاً من الجذور ، وينظر المؤمن إلى المؤمن مثله ؛ والذى عاداه فى الدنيا نظرتُه إلى مُحسِن له ؛ لأنه بالعداوة والمنافسة جعله يخاف أن يقع عَيْب منه .

---

(١) هو : طلحة بن عبيد الله القرشى ، أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبى بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى . مات عام ٣٦ هجرية بيد مروان بن الحكم فى موقعة الجمل . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٢٩١/٣] .

(٢) هو : الزبير بن العوام ، ابن عمة النبى ﷺ ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، زوج أسماء بنت أبى بكر الصديق . قتل فى موقعة الجمل عام ٣٦ هجرية على يد عمرو بن جرموز . [الإصابة ٣/٥ ـ ٧] وقد أورد ابن حجر هذا الحديث فى الإصابة وعزاه لأبى يعلى من طريق أبى جرو المازنى .

ذلك أن المؤمن فى الآخرة يذكر مُعْطيات الأشياء ، ويجعلهم الحق سبحانه إخواناً ؛ فَرُبَّ أخٍ لك لم تَلِدْه أمُك ، والحق سبحانه هو القائل فى موقع آخر :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا[1] حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا.. (١٠٣) ﴾

[آل عمران]

وقد يكون لك أخ لا تكرهه ولا تحقد عليه ؛ ولكنك لا تُجالسه ولا تُسامره ؛ لأن الأخوة أنواع[2] . وقد تكون أخوة طيبة ممتلئة بالاحترام لكن أياً منكما لا يسعى إلى الآخر ، ويجمعكم الحق سبحانه فى الآخرة على سُرُر متقابلين .

وسأل سائل : وماذا لو كانت منزلة أحدهما فى الجنة أعلى من منزلة الآخر ؟ ونقول : إن فَضل الحق المطلق يرفع منزلة الأدْنى إلى منزلة الأعلى ، وهما يتزاوران .

وهكذا يختلف حال الآخرة عن حال الدنيا ، فالإنسان فى الدنيا يعيش ما قال عنه الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ[3] إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ (٦) ﴾ [الانشقاق]

---

(١) شفا الشيء : حَرْفه وطَرَفه . شفا كل شيء : حَرْفه . وأشفى على الشيء : أشرف عليه . [لسان العرب ـ مادة : شفى] .

(٢) يفهم من خواطر الإمام أن الأخوة إما أخوة نسبية ، وإما أخوة إيمانية ، وأخوة الإيمان أقوى من أخوة النسب حيث يقول الحق : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ..(١٠) ﴾ [الحجرات] فكل مؤمن أخ ، وليس كل أخ مؤمناً .

(٣) الكَدْح : هو السعى والحرص والدؤوب فى العمل . كدح الرجل : جَدَّ وكَدَّ فى العمل وبذل فيه جهداً كبيراً . [القاموس القويم ٢/١٥٥] .

ولكن الحال فى الآخرة يختلف ، وينطبق عليه قول الحق سبحانه فى الآية التالية :

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ(١) وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وحياتُكَ فى الآخرة - إنْ أصلحتَ عملك وكنتَ من المؤمنين - تختلف عن حياتك فى الدنيا ؛ فأنت تعلم أنك فى الدنيا تَحْيا مع أسباب الله المَمْدودة لك ؛ وتضرب فى الأرض من أجل الرزق ، وتجتهد وتتعب من أجل أنْ يهبكَ اللهُ ما فى الأسباب من عطاء .

وحينئذ تصبح من المُفْلحين الذين يهديهم الله جنته . يقول الحق جل عُلاَه :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

[البقرة]

وشاء الحق سبحانه أن يأتى بلفظ المُفْلِح كصفة للمؤمن فى الجنة ، لأن المؤمن قد حرثَ الدنيا بالعمل الصالح وبذل جهده ليقيمَ منهج الله فى الأرض ، ونصبَ قامته ، ونعلم أن نَصْب القَامَة يدلُّ على أن مَنْ يعمل قد أصابه التعب ، وذلك فى الحياة الدنيا .

أما فى الجنة ، فيقول الحق :

﴿ لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحجر]

(١) النصب : الإعياء والتعب والمشقة والأذى . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٥٣) .

أى : لا يصيبهم فيها تعب ، ولا يُخْرَجون من الجنة ، ذلك أنهم قد نَالُوا فيها الخلود .

وهكذا تكلَّم سبحانه عن الغَاوين ، وقد كانوا أخلاَّء فى الدنيا يمرحُون فيها بالمعاصى ؛ وهم مَنْ ينتظرهم عقابُ الجحيم . وتكلَّم عن العباد المُخلصين الذين سيدخلون الجنة ؛ ومنهم مَن اختلفتْ رُؤَاه فى الدنيا ، ولم يربط بينهم تآلفٌ أو محبَّة ؛ لكنهم يدخلون الجنة ، وتتصافَى قلوبهم من أىِّ خلاف قد سبق فى الدنيا .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ . والإنباء هو الإخبار بأمر له خطورته وعظمته ؛ ولا يقال (نبىء) فى خبر بسيط . وسبق أن قال الحق سبحانه عن هذا النبأ :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [النبأ]

وقال سبحانه أيضاً عن هذا النبأ :

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [ص]

ونفهم من القول الكريم أنه الإخبار بنبأ الآخرة وما سوف يحدثُ فيها ، وهنا يأتى سبحانه بخبر غُفْرانه ورحمته الذى يختصُّ به عباده المخلصين المُتقين الذين يدخلون الجنة ، ويتمتَّعون بخيْراتها خالدين فيها .

ولقائل أنْ يسأل : أليستْ المغفرة تقتضى ذَنْباً ؟

ونقـول : إن الحق سـبحـانه خلقنا ويعلم أن للـنفس هواجسَ ؛ ولا يمكن أنْ تسلمَ الـنفس من بعض الأخطاء والذنوب والوسـوسـة ؛ بدليل أنه سبحانه قد حَـرَّم الكثير من الأفـعال على المسلم ؛ حـمايةٌ للفرد وحمايةٌ للمجتمع أيضاً ، ليعيش المجتمع فى الاستقرار الآمن .

فـقد حـرَّم الحق سـبحـانه على المـسلم الـسـرقة والزِّنَا وشُـرْب الخمر ، وغيرها من المُوبِقات[1] والخطايا ، والهواجس التى تقوده إلى الإفساد فى الأرض ، وما دام قد حرَّم كل ذلك فهذا يعنى أنها سوف تقع ، ونزل منهجه سبحانه مُحرِّماً ومُجَرِّماً لمن يفعل ذلك ، كما يُلزِم كل المؤمنين به بضرورة تجنُّب هذه الخطايا .

وهنا يُوضِّح سبحانه أن مَنْ يغفل من المـؤمنين ويرتكب معصية ثم يتوب عنها ، عليه ألاَّ يُؤرِّق نفسه بتلك الـغفلات ؛ فسبحانه رءوفٌ رحيم .

ونحن حين نقـرأ العربية الـتى قد شرَّف اللهُ أهلَهـا بنزول القرآن بها ، نجد أقسامَ الكلام إما شعْـراً أو نَثْراً ، والشعر له وَزْن وقافية ، وله نَغَم وموسـيقى ، أما النثـر فليس له تلك الصِّفـات ، بل قد يكون مَسْجوعاً أو غَيْرَ مسجوع .

وإنْ تكلمتَ بكلام نـثرىٍّ وجـئْتَ فى وسطه ببيت من الشـعـر ، فالذى يسمـعك يُمكنه أن يلحظ هذا الفارقَ بين الشعـر والنثر . ولكن القـرآن كلامُ ربٍّ قـادر ؛ لذلك أنت تجـد هذه الآية التى نحن بصـدد خواطرنا عنها وتقرؤها وكأنها بَيْتٌ من الشعر فهى موزونة مُقفَّاة :

---

(١) الموبقات : الذنوب المهلكات . وأوبقه : أهلكه . [لسان العرب ـ مادة : وبق] .

« نَبِّىء عِبَادِى أنِّى أنَا الغفورُ الرَّحِيمُ »

ووزنها من بَحْـر المُجْتث[1] . ولكنها تأتى وَسْط آيات من قـبلها ومن بعدها فـلا تشعـر بالفارق ، ولا تشـعر أنك انتقلتَ مـن نثرٍ إلى شعرٍ ، ومن شـعر إلى نثر ؛ لأن تضامن المعـانى مع جمال الأسلوب يعطينا جلال التأثير المعجز ، وتلك من أسرار عظمة القرآن .

ثم يقول الحق سبحانه فيما يخص الكافرين أهل الغواية :

﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

وهكذا يكتـمل النبأ بالمـغفرة لمَـن آمنوا ؛ والعذاب لمَنْ كـفروا ، وكـانوا من أهل الغـواية . ونلحظ أنه سبحـانه لم يُشـدِّد فى تأكيـد العذاب ، ذلك أن رحمته سبقتْ غضبه ، مصداقاً لقوله ﷺ :

« إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائةَ رحمة ، فأمسك عنده تسعـاً وتسعيـن رحمةً ، وأرسل فى خَلْقـه كلِّهم رحمـةً واحدةً ، فلو يعلم الكـافـر بكل الذى عند الله من الـرحـمـة لم ييـئـس من الجنة ؛ ولو يـعلم المـسلـم بكل الذى عـند الله من العـذاب ؛ لم يأمـن من النار »[2] .

ونلحظ أن الآيتين السابقتين يشرحهما قَوْل الحق سبحانه :

---

(١) سمى هذا البحر بـالمجتث ؛ لأنه مجتث أى مقتطـع من بحر الخفيف بتقديم (مـستفعلن) على (فاعلاتن) ، ولم يستعمل إلا مجزوءاً ، وله عروض واحدة صحيحة تقطيعه : مستفع لن فاعلاتن مسـتفع لن فاعلاتن انظر كتاب (فى علمى العروض والقـافية) ـ د. أمين على السيد ـ طبعة دار المعارف ١٩٨٢م .

(٢) أخرجه البـخارى فى صحيحه (٦٤٦٩) ، وأخـرج مسلم بعضه فى صحـيحه (٢٧٥٥) كتاب التوبة ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد]

ولذلك نرى أن الآيتين قد نبَّهتا إلى مَقَامى الرجاء والخوف ، وعلى المؤمن أنْ يجمعَ بينهما ، وألاَّ يُؤجِّل العمل الصالح وتكاليف الإيمان ، وأن يستغفر من المعاصى ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعامل الناس بالفضل لمن أخلص النية وأحسن الطوية . لذلك يقول الحديث :

« لمَّا قضى الله الخَلْق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى »[1] .

ثم ينقلنا الحق سبحانه من بعد الحديث عن الصفات الجلالية والجمالية فى الغفران والرحمة والانتقام إلى مسألة حسِّية واقعية تُوضِّح كل تلك الصفات ، فيتكلم عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ويعطيه البُشْرى ، ثم ينتقل لابن أخيه لوط فيعطيه النجاة ، ويُنزِل بأهله العقاب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾

وكلمة (ضيف) تدلُّ على المائل لغيره لقِرَىً[2] أو استئناس ، ويُسمُّونه « المُنْضوى » لأنه ينضوى إلى غيره لطلب القِرَى ، ولطلب

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥١) ، والبخارى فى صحيحه (٣١٩٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وفى لفظ : « غلبت » .

(٢) قرى الضيف قرىً وقراء : أضاف . واستقرانى : طلب منى القرى . والقرى : طعام الأضياف . [لسان العرب ـ مادة : قرى] .

الأمن . ومن معانى المُنْضوى أنه مالَ ناحية الضَّوْء .

وكان الكرماء من العرب من أهل السماحة ؛ لا تقتصر سماحتهم على مَنْ يطرقون بابهم ، ولكنهم يُعلنون عن أنفسهم بالنار ليراها مَنْ يسير فى الطريق ليهتدى إليهم .

وكلنا قرأنا ما قاله حاتم الطائى للعبد الذى يخدمه :

أوْقد النــارَ فإنَّ الليْـلَ لَيْل قُرّ[1]
والـريحُ يَا غُــلامُ ريــحُ صــرّ[2]
إنْ جلبت لنَـا ضَـيْفاً فأنـت حُــر

وهكذا نعرف أصلَ كلمة انضوى . أى : تَبِع الضوء .

وكلمة (ضيف) لفظ مُفْرد يُطلَق علـى المفرد والمُثنّى والجمع ، إناثاً أو ذكوراً ، فـيُقـال : جاءنى ضيـف فأكرمـته ، ويقـال : جاءنى ضيف فأكرمتها ، ويقال : جاءنى ضـيف فأكرمتهما ، وجاءنى ضيف فأكرمتهم ، وجاءنى ضيف فأكرمتهُنَّ .

وكلُّ ذلك لأن كلمـة « ضـيف » قـامت مقـام المـصـدر . ولـكن هناك من أهل العـربية مَنْ يـجمـعون « ضـيف » على « أضيـاف » ؛ ويجمعون « ضيف » على « ضيـوف » ، أو يجمعون « ضيف » على « ضيفان » .

ولننتبه إلــى أن الضيفَ إذا أُطلق على جَمْع ؛ فمـعناه أن فرداً قد

---

(١) القر : البرد . والقُرُّ : اليوم البارد . وكل بارد : قُر . [لسان العرب ـ مادة : قرر] .

(٢) الريح الصر والصـرصر : الشديدة البرد ، والشـديدة الصوت العاصفـة . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .